دروس تطبيقية في مقياس: نص أدبي قديم(نثر).

الأستاذة: فوزية سعيود

المستوى: الأولى ليسانس جدع مشترك، الفوجين(01، و04).

الدرس الأول: النثر العربي القديم؛ بداياته وأصوله الفنية.

مقدمة:

عرف العرب قدر الكلمة المنثورة وأولوها اهتماما بالغا، وارتبطت عندهم بالخلافة والحكم ارتباط سبب قوى ووسيلة هامة، وكم من خليفة ارتفعت خلافته بحكمة قوله وسحر بيانه.

1_ النثر لغة:

ورد في لسان العرب:« النثر نَثْرُكَ الشيءَ بيدك ترمي به متفرقا مثل نثر الجوز واللوز والسكر وكذلك نثر الحبّ إذا بُذر».

فنثر في اللغة تقوم على التفرقة والتوزع والتبعثر، وهي قريبة من صفة النثر في الكلام الذي يقابله النظم، فالنثر لغة هو الكلام الذي لا يحكمه نظام ولا وزن، ثم تطورت دلالته وأصبحت خاصة بالكلام الأدبي الفني.

2_ النثر اصطلاحاً:

النثر اصطلاحا كما عرفه " محمد مصطفى منصور" هو:" أحد ألوان القول الأدبية، وتتعدد أشكاله وتختلف ألوانه بتعدد المواقف التي يقال فيها واختلاف المناسبات التي ينشأ من أجلها. فقد يكون النثر خطبة، أو رسالة، أو وصية، أو توقيعا...."[1].

والكلام المنثور هو:" الكلام الذي لم يضبطه وزن، أو سجع أو روي، لذا فالكلام اليومي، الوافي بأغراض الناس، واحتياجاتهم يسمى نثرا، ولكنه كلام محكي يجري بين العامة والخاصة وهذا ليس من همنا، بل المقصود هنا بكلمة النثر، ما يؤلف الأديب في إطاره الفني، تعبيرا عن الفكر، والحضارة"[2].

[1]- محمد مصطفى منصور: صور من النثر الفني في عصري صدر الإسلام وبني أمية، دار غريب، القاهرة ، 1998م ، ص7.

[2]- علي شلق: مراحل تطور النثر العربي في نماذج، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، ج1،1991 ، ص69.

والجدير بالذكر هو أن النثر "على ضربين:

أما الضرب الأول فهو النثر العادي الذي يقال في لغة التخاطب. وليست لهذا الضرب قيمة أدبية إلا ما يجري فيه أحيانا من أمثال وحكم، وأما الضرب الثاني فهو النثر الذي يرتفع فيه أصحابه إلى لغة فيها مهارة وبلاغة، وهذا الضرب هو الذي يُعنى النقاد ببحثه ودرسه وبيان ما مر به من أحداث وأطوار، وما يمتاز به في كل طور من صفات وخصائص، وهو الكلام الذي يحتفل صاحبه بالصياغة وجمال الأداء ويتفرع إلى الخَطابة والكتابة الفنية"[3].

فالكلام المنثور يتخذ عدة أشكال، ويتحكم في تطوره عدة عوامل، تبعا للأحوال والمقامات، وهناك تباين بين أنواعه، سواء من حيث القيمة أو التداول، وأشهره الخَطابة والكتابة الفنية(النثر الفني).

_ بدايات النثر العربي وأصوله الفنية:

يجد الدارس صعوبة إذا ما حاول معرفة الفترة التي نشأ فيها النثر العربي، ذلك أن معظم الباحثين الذين أخذوا على عاتقهم مهمة دراسة الأدب الجاهلي، لم يصلوا إلى رأي واحد يمكن أن يعتمد عليه الباحث، لأسباب منها قلة التدوين، وشيوع الأمية، ومعظم ما روي عن أدبنا القديم جاء عن طريق المشافهة والرواية. إضافة إلى ذلك، فإن الحديث عن هذا الجنس يرد _غالبا_ في إطار مقارنته بالشعر، ومناقشة **مسألة الأسبقية والأفضلية**، وهو ما يتمخض عنه على الأعم اعتباره جنسا أو فرعا أقل مرتبة من الشعر، أو أدنى منه تأثيرا في نفوس السامعين " إن التنازع بين الشعر والنثر مرّ بمرحلتين هما: مرحلة الصراع الوجودي بين الشعر والنثر، حيث دارت أهم المناقشات حول أسبقية كل منهما(الأصل، الفرع)، تميزت المرحلة الثانية ببروز الوعي النقدي للجمع بين الشعر والنثر، في ظل مفهوم جديد هو ما اصطلح عليه عند بعض النقاد بمصطلح الكتابة، لهذا فإن النظر إلى الشعر والنثر باعتبارهما ثنائية يحكمها التضاد أو التنازع مسألة لا تزال تطرح بشكل مغلوط... من هنا

[3] - شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، القاهرة، مصر ، ط2، ص 15.

كان الموقف السليم يتمثل في معالجة قضية تنازع الشعر والنثر في إطارها الطبيعي وهو مسألة الأجناس الأدبية من حيث ظهورها وتطورها وتداخلها وتفاعلها واندثارها".

لم يحظ النثر في العصر الجاهلي بما حظي به في الأزمنة التي تلته، ولم يهتم العرب في جاهليتهم بفن من فنون القول مثل اهتمامهم بالشعر، الذي طغى على غيره من فنون القول الأخرى التي رصدت معه في عصره، كالخطابة والمواعظ والحكم والأمثال .

إن أهم ما يواجه الباحث في النثر الجاهلي هو قضية الشك في صحة النصوص التي وصلت إلينا من ذلك العصر، فكما شك بعض المستشرقين في صحة الشعر الجاهلي، شك بعضهم أيضا في النثر الجاهلي، ومنهم المستشرق الفرنسي (ألمسيو مرسيه) الذي نفى وجود نثر فني جاهلي، ودليله في ذلك أن العرب في جاهليتهم كانوا يعيشون حياة أولية (بدائية)، والحياة الجاهلية لا توجب النثر الفني لأنه لغة العقل، وقد تسمح بالشعر لأنه أقرب إلى لغة الخيال.

أما "زكي مبارك" فقد أنكر زعم المستشرق (ألمسيو مرسيه) القائل بوجود الشعر عند العرب في الجاهلية، وعدم وجود نثر فني قديم لديهم وأكّد أنه:" قد كان للعرب في الجاهلية نثر فني له خصائصه وقيمته الأدبية، وأن الجاهليين لابد وأن يكونوا قد بلغوا في ذلك المضمار شأوا بعيدا لا يقل عما وصل إليه الفرس واليونان في ذلك الوقت، بل أنهم في إنتاجهم الأدبي في النثر لم يكونوا متأثرين تأثراً كبيرا بدولة أخرى مجاورة أو غير مجاورة، وإنما كانت لهم في كثير من الأحيان أصالتهم وذاتيتهم واستقلالهم الأدبي الذي تقتضيه بيئتهم المستقلة، وحياتهم التي كانت أقرب إلى الانعزال. وإذا كانت الظروف المختلفة لم تساعد على بقاء هذا التراث من النثر الجاهلي، فليس معنى ذلك أن نهدره ونحكم بعدم وجوده، وإنما يجب أن نلتمسه في مصادر أخرى. ونحن إن فعلنا هذا فسوف نجد بين أيدينا حجة لا تنكر، ودليلا لا يجحد على أن ثمة نثرا جاهليا، ألا وهو القرآن الكريم. فإذا كنا نؤمن بأن هذا القرآن قد نزل لهداية هؤلاء الجاهليين، وإرشادهم، وتنظيم حياتهم في نواحيها المختلفة من دينية، وأخلاقية، وسياسية، واجتماعية، واقتصادية، وأنه كان يخاطبهم وهم بطبيعة الحال لا يخاطبون إلا

بالأسلوب الذي يفهمونه ويتذوقونه، وأنه كان يتحداهم في محاكاته، والإتيان بسورة من مثله ولا يسوغ في العقل أن يكون هذا التحدي إلا لقوم قد بلغوا درجة ما من بلاغة القول، وفصاحة اللسان تجعلهم أهلا لهذا التحدي حتى يصدق معناه.

والذي لا بد من الإشارة إليه في هذا المقام هو أن النثر القديم تميز بقلته، ذلك أن العرب تناقلته بالطريقة الشفهية مما أدى إلى ضياعه وعدم وصوله إلينا كاملا، وليس بين أيدينا وثائق جاهلية صحيحة تدل على أن الجاهليين عرفوا الرسائل الأدبية وتداولوها، وليس معنى ذلك أنهم لم يعرفوا الكتابة، فقد عرفوها غير أن صعوبة وسائلها جعلتهم لا يستخدمونها في الأغراض الأدبية(شعر، نثر)، فقد استخدموها فقط في الأغراض السياسية والتجارية. وكذلك وجدت صحيفة لقمان بها بعض أمثال وحكم مما كانوا ينسبونه إلى لقمان، ووجود هذه الصحيفة لا يدل على أنهم استخدموا الكتابة في التعبير عن وجدانهم شعرا ونثرا، ولكن من المحقق أنه وجدت عندهم ألوان مختلفة من القصص والأمثال والخطابة وسجع الكهان.

كما امتاز النثر في هذا العصر "بجريانه مع الطبع، فليس فيه تكلف ولا زخرف ولا غلو، يسير على أخلاق البدوي وبيئته، فهو قوي اللفظ، متين التركيب، قصير الجملة، موجز الأسلوب، قريب الإشارة، قليل الاستعارة، سطحي الفكرة، وربما تساوقت فيه الحكم وأطردت الأمثال من غير مناسبة قوية ولا صلة متينة"[4].

[4]- أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربي للمدارس الثانوية والعليا، ،ط13، دار المعرفة، بيروت،لبنان،2209، ص18-19.

الدرس التطبيقي الثاني: فن الخطابة قبل الإسلام(نماذج؛ قُس بن ساعدة، هاشم بن عبد مناف...).

1- مفهوم الخطابة في اللغة والاصطلاح:

الخطابة في اللغة هي مراجعة الكلام، وهي الكلام المنثور المسجع[5].

أما في الاصطلاح فهي فنٌّ من فنون القول وقِسْم من أقسام النثر يهدف إلى استمالة الناس. وتُعرَّف أيضا بأنها نوعٌ من أنواع الكلام يقع عن طريق المشافهة والمواجهة، فهي ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالجُمهور الذي يَسمعها ويتأثر بها.

2-أنواع الخطابة:

للخطابة أنوع كثيرة منها: الخُطب السياسية، الخُطب الدينية كخطبة صلاة الجمعة وصلاة العيد وغيرها. الخُطب القضائية، الخُطب الجدلية، الخُطب العلمية والمناظرات، الخُطب العسكرية، الخُطب العامة: وهي الخُطب الاجتماعية مثل الزواج أو الصُلح بين المتخاصمين وغيرها.

3-أجزاء الخطابة: الخطيب – الخطاب – المخاطب .

4_ فن الخطابة قبل الإسلام :

اشتهرت الخطابة الأدبية في ذلك العصر لما كان عليه العرب من النعرة والحمية، وشن الغارات في الدفاع عن النفس والمال والعرض والمفاخرة بالشعر والخطب في الحسب والنسب، وقوة العصبية وشرف الخصال من الشجاعة والكرم، والنجدة وحماية الجار، فكانت الخطابة فيهم فطرية ولهم ضرورية مع ما فيهم من ذلاقة اللسان، وقوة البيان قضت بها طبيعتها المعيشية، ودعت إليها حالتها الاجتماعية، فتفتقت بها ألسنة أبنائها صيانة لعزها، وحفاظا لمجدها، وتخليدًا لمآثرها، وتأييدًا لمفاخرها، ولا عجب في أن يكون في العرب قبل الإسلام تلك الخطابة الممتازة، فإن للخطابة أثر انفعالات تنشأ عن حوادث تمس الجماعات،

[5] - ينظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة (خ، ط، ب).

ونوازل تعرض للأمم والشعوب، ولم تخل الأمة العربية في جاهليتها من حوادث على هذا النحو، فتثور بينهم لذلك محاورات شديدة، وجدال عنيف، وكانت الحرب بينهم لا تكاد تضع أوزارها، وكانت لهم مع هذا مجامع يعرضون فيها مصنوعات قرائحهم؛ ليباهوا بما فيها من بلاغة وحكمة، وإذا كان في القوم قوة بلاغة، وفي نفوسهم طموح إلى السيادة، وفي ألسنتهم قوة على الجدل وشدة في المحاورة، وفي أيمانهم سيوف تتجافى عن أغمادها، وفي بلادهم أسواق بضاعتها من بديع أفكارهم، فلا عجب أيضًا أن يلدوا خطباء نجباء يقرعون الأسماع بذكر مفاخرهم، ويثيرون العواطف إلى الدفاع عن كرامتهم وأنفسهم، وأموالهم وأعراضهم. ولعنايتهم قديمًا بالشعر دون الخطابة لصعوبة حفظ النثر لم يصل إلينا أحوال خطبائهم الأوائل عند التأدية، ولا شيء من خطبهم، ولم تعن الرواة بنقل أخبار الخطباء وخطبهم إلا بعد أن وصلت الخطابة إلى منزلة أسمى من الشعر، فعلا بذلك شأن الخطابة، واشتهر بها الأشراف، وكان لكل قبيلة خطيب كما كان لكل قبيلة شاعر يحفظ عليهم مآثرهم، ويفخم من شأنهم، ويهول على عدوهم؛ بل كان كل واحد منهم في نفسه خطيبًا.

5- الخصائص الفنية للخطابة قبل الإسلام:

كان الخطباء يحرصون على أن تتوافر في خطبهم عدّة خصائص، منها:

_ وضوح الفكرة، _ جودة العبارة وسلامة ألفاظها.

_ التنوع في الأسلوب بين الخبري والإنشائي، _ قلة الصور البيانية.

_ مراعاة السجع في عباراتها لا سيما في مقامات الفخر خاصة، أما في خطب المحافل وإصلاح ذات البين، مثلا، فإنهم كانوا يستخدمون الأسلوب المرسل.

_ كانوا يُؤثرون قِصَر العبارة في خطبهم، وتوشيحها ببعض الحكم والأمثال والشعر لغرض التأثير والإقناع.

_ قد تطول الخطبة وقد تقصر، ولكل منهما مقام وموضع و قدر من العناية.

6_ صفات الخطيب:

للخطيب صفات أهمها: حضور البديهة، وقلة التلفت وتجنب بعض الحركات المشينة، وقوة الجنان، وظهور الحُجّة، وجهارة الصوت، والتقليل من التنحنح والسعال.

7 _مضامين الخطابة في عصر ما قبل الإسلام:

دارت الخطابة في عصر ما قبل الإسلام في نطاق البيئة التي نشأت وترعرعت فيها، فكانت خطابة بطولة وفروسية، يعرضها الخطباء من أجل التحريض على القتال، والتحكيم في الخصومات، وتحمل الديات، وإصلاح ذات البين، والمنافرات، والوصايا، والوفادة على الملوك والأمراء، وكانت خطابة زهد تدعو الناس إلى الصدوف أو الابتعاد عن بهارج الدنيا والتعلق بحبال الآخرة، كما كانت كذلك خطابة كهان يسجعون سجع الحمام في سبيل هدف غيبي يطلقون وراءه الأقاويل، وكانت خطابة زواج يعقد ويبارك.

لقد كان للخطيب منزلة رفيعة في هذا العصر، حيث أصبح سيدا في قومه يأمر فيُطاع ويدعوا فيُجاب كما حفل هذا العصر بالكثير من الخطباء واشتهر منهم: سهيل بن عمرو، لبيد بن ربيعة، هَرم بن قُطْبة الفَزاري، هانئ بن قبيصة الشيباني، ضمرة بن ضمرة، أكثم بن صيفي، هاشم عبد مناف، مأمون الحارثي...

وأما أشهر خطباء الجاهلية: "**قس بن ساعدة الإيادي**" وهو أسقف نجران وخطيب العرب وحكيمها وحكمها. كان يؤمن بالله ويدعو إليه بالموعظة والحكمة الحسنة، ويقال إنه أول من قال في خطبته عبارة :(**أما بعد)** وتسمى **(فصل الخطاب)**، سمعه النبي(صلى الله عليه وسلم) في عكاظ ويروى أنه قال فيه:" رحم الله قسّا وإني لأرجو يوم القيامة أن يبعث أمة وحده".

_ خطبة قُسّ بن ساعدة الإيادي:

قال "**قُسُّ بن ساعدة**" في عكاظ: "أيها الناس: اسمعوا وعوا: من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، ليل داج، ونهار ساج، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهر، وبحار

تزخر، وجبال مرساة، وأرض مدحاة، وأنهار مجراه، إن في السماء لخبرًا، وإن في الأرض لعبرًا، ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون، أرضوا فأقاموا، أم تركوا فناموا؟

ثم يقسم قس بالله قسمًا لا إثم فيه فيقول: إن لله دينًا هو أرضى له، وأفضل من دينكم الذي أنتم عليه، إنكم لتأتون من الأمر منكرًا ."وزاد بعضهم في الروايات أنه قال: "يَا مَعْشَرَ إيَاد: أيْنَ الآبَاءُ والأجْدَادُ؟ وأيْنَ الفَرَاعِنَةُ الشِّدَادُ؟ أَلَمْ يَكُوْنُوا أكْثَرَ مِنْكُم مَالاً وأطولَ آجالاً؟ طَحَنَهُم الدهْرُ بِكَلْكَلِهِ، ومزَّقَهم بتطاوُلِه (."ويروى أن قساً أنشأ بعد ذلك يقول" :

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر

لما رأيت مواردا للموت ليس لها مصادر

ورأيت قومي نحوها تمضي الأكابر والأصاغر

لا يرجع الماضي إلي ولا من الباقين غابر

أيقنت أني لا محالة حيث صار القوم صائر".

ـ خطبة "هاشم بن عبد مناف" يحث قريشا على إكرام زوار بيت الله الحرام

كان هاشِمُ بنُ عبدِ مَنافٍ يقومُ أولَ نَهارِ اليومِ الأولِ مِن ذي الحِجَّةِ فَيُسْنِدُ ظهرَه إلى الكعبةِ مِن تِلْقَاءِ بَابِها، فَيَخْطُبُ قُريشًا، فيقولُ:

يا معشرَ قريشٍ، أنتم سادةُ العَرَبِ، أَحْسَنُها وُجُوهًا، وَأَعْظَمُها أحلامًا، وأَوْسَطُها أنسابًا، وأَقْرَبُهاأرحامًا.

يا معشرَ قريشٍ، أنتم جِيرانُ بيتِ اللهِ، أكرمَكم بِوِلايَتِهِ، وَخَصَّكم بِجِوَارِه دونِ بني إسماعيلَ، وحَفِظَ منكم أحسنَ ما حَفِظَ جارٌ مِن جارِهِ، فَأَكْرِمُوا ضَيْفَهُ، وُزُوَّارَ بَيْتِهِ؛ فإنَّهم يأتونَكم شُعْثًا غُبْرًا مِن كلِّ بَلَدٍ، فَوَرَبِّ هذه البُنِيَّةِ لو كان لي مالٌ يَحْمِلُ ذلك لَكَفَيْتُكُمُوه. ألا وإنِّي مُخْرِجٌ مِن طَيِّبِ مالي وحلالِه ما لم يُقْطَعْ فيه رَحِمٌ، ولم يُؤْخَذْ بِظُلْمٍ، ولم يَدْخُلْ فيه حَرَامٌ، فَوَاضِعُهُ فَمَنْ شاءَ منكم أَنْ يَفْعَلَ مِثْلَ ذلك فَعَلَ.

وأَسْأَلُكم بِحُرْمَةِ هذا البيتِ أَلاَّ يُخْرِجَ رجلٌ منكم مِن مالِه لِكِرَامَةِ زُوَارِ بيتِ اللهِ ومَعُونَتِهم إِلاَّ طَيِّبًا لم يُؤْخَذْ ظُلْمًا، ولم يُقْطَعْ فيه رَحِمٌ، ولم يُغْتَصَبْ.

لقد تميزت الخطابة في هذا العصر بعدة خصائص أهمها: الإيجاز وكثرة السجع أحيانا، امتلاؤها بالأمثال والحكم في أغلب الأحيان، سيطرة العاطفة عليها، الدعوة إلى سمو الأخلاق والتبصر وتحكيم العقل، سهولة ألفاظها وقصر جملها، ندرة الصور البيانية وكثرة المحسنات البديعية والاستشهاد بالشعر، وكذلك غياب المنهج، فلا مقدمة ولا خاتمة.